﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقال مِن مِنَّة الهداية إلى التَّذكير بمِنّة الإنجاء

انتقلتِ الآيةُ إلى امتنان آخر على بني إسرائيلَ، وقد نجّى اللّهُ آباءَهم الأوّلين مع نوح ﷺ، فوجب شُكر نعمةِ الله عليهم، فكما أسرى بمحمَّد ﷺ مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأسرى بموسى ﷺ إلى جبل الطّور حيثُ المواعدةُ الرّبانيّة، وآتاه التّوراةَ هدًى وهدايةً، رجعَ فذَكَر مِنّته ﷻ على نوحٍ ومَن معه، بإنجائهم مِنَ الغَرق في كونه عبدًا للّه تعالى شكورًا لنعمائه عليه، فألْفَتَهُمْ إلى وجوب الإذعان له تعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّةَ﴾: (ذرأ) الذّالُ والرّاءُ والهمزةُ يَدُلُّ على الشّيءِ يُبذَرُ ويُزرعُ، ومنه قولُهُم: ذرأنا الأرضَ، أي: بذرناها، وزَرْعٌ ذَريء، على فعيل، ومِن هذا البابِ: ذَرأَ اللّهُ الخَلْق يَذْرؤُهُم، قال اللّهُ تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 11][1]، ولفظ الذُّرّيّة نَسْلُ الثّقلَين، وكان ينبغي أن تكون ذُرّيئَة فكَثُرت، فتَركَتِ العربُ همزَها، وليس في القرآن من هذا التّركيب إلّا (ذرأ)، ومضارعها بمعنى نَشْرِ الأشياءِ الدّقيقة والذّرّيّة[2]، والذُّرّيّة تقعُ على الآباءِ والأبناءِ والأولادِ والنِّساء، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝٤١﴾ [يس: 41]؛ أراد آباءَهُمُ الّذين حُمِلوا مع نوح في السّفينة[3]، والمرادُ بالذُّرّيّة هنا: آباؤُهم الّذين نَجَوا مع نوحٍ ﷺ أيامَ الطّوفانِ الأكبرِ؛ لإيمانهم بما جاء به نَبيُّ اللّهِ ﷺ، فالمقصود بها إذًا آباؤهم الأوَلُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرأ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذرأ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ذرا).

2) ﴿حَمَلْنَا﴾: "الحاءُ والميمُ واللّامُ أصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على إقلالِ الشّيءِ، يُقالُ: حملتُ الشّيء أحمِلُهُ حملًا، والحَمْلُ: ما كان في بطن أو على رأسِ شجر، والحِملُ: ما كان على ظَهْر أو رأسٍ[1]، والمراد بالحَمْل هنا: ركوبُ مَن آمن مع نوح عليه السلام، فهم محمولون بأمر الله وإذنه، والمرادُ بالمَحمولين: المؤمنون الّذين ارتَضَوا منهجَ نبيّ اللهِ نوحٍ عليه السلام وصدّقوه، ومِن هنا نجّاهمُ اللهُ تعالى وأهْلَكَ المُعاندين المُكَذِّبين.

3) ﴿شَكُورًا﴾: ممّا تدلّ عليه الشّينُ والكافُ والرّاءُ: الثّناءُ على الإنسانِ بمعروف يوليكَهُ، ويُقالُ: إنّ حقيقة الشُّكرِ الرِّضا باليسيرِ، يقولون: فَرَسٌ شَكور، إذا كفاهُ لِسمَنِهِ العَلَفُ القليلُ، ويُقالُ في المَثَلِ: (أشْكَرُ مِن بَروَقَةٍ)، وذلك أنّها تَخْضَرُّ مِنَ الغيم مِن غيرِ مطر[2]، ومعناه المِحوريّ: "امتلاءُ جَوفِ الشّيء بِرِخْوٍ طيِّبٍ، وظهورُه عليه، ولو كان رافدُه قليلًا، ومِن معنويِّ الأصل: الشّكر: عِرفانُ الإحسان لصاحبه ونشرُه؛ إذ هو تعبيرٌ عنِ امتلاء النّفسِ ورضاها بما قُدِّم لها مِن خير"[3]، والشّكور هنا: هو نبيُّ اللهِ نوحٌ عليه السلام، المَوسومُ بكَثرة شُكْرِه ربَّه عزّ وجلّ في كلِّ أحواله.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لفتُ الأذهان إلى مِنّة الرّحمن

جاءت هذه الآيةُ إثارةً لعزائم بني إسرائيلَ نحو الإيمانِ والعملِ الصّالح، ولتنبيههم إلى نعمه سبحانه عليهم؛ إذ جعلهم مِن ذُرّيّة أولئكَ الصّالحين الذين آمنوا بنوح عليه السلام، وحضّهم على السّير على منهاجهم في الإيمان والعمل الصّالح، فإنّ شأن الأبناءِ أن يقتدوا بالآباء في التّقوى والصّلاح[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 289 بتصرف.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فَصْل صدرِ الآية:

مِـــن أعـظـم المِـنن تـواليـها، والتَّذكيرُ ببركةِ ماضيها

فُصلت آية: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ عمّا قبلَها؛ لكونها مسوقةً على وجه التّعليل؛ إمّا لإيتاء الكتاب، أو لِجَعْله هدًى، أو أنّها مُنَزّلةٌ مَنزلةَ عطفِ البيان مِن سابقتها، فتَمّ الفصلُ بينهما لكمال الاتِّصال في كونها وردت مبيِّنةً تشريفَ اللّهِ تعالى لبني إسرائيل، بأنَّهم بنو إسرائيل مِن ذُرّيّة المؤمنين مع نوحٍ ﷺ، وإتمامُ نعمتِه عليهم ليقعَ منهم اتِّباعُ الرُّسلِ ﷺ، وليَحْمِلَهم ذلك على هذا الاتِّباع، و"يجوزُ أن يكون اعتراضًا في آخرِ الحِكايةِ، ليس داخِلًا في الجُملةِ التّفسيريّةِ"[1].

دلالةُ النّصبِ في: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾:

تَـحـريـضٌ على شُكرِ نِعمةِ الله، واجتِنابِ الكُفرِ بِهِ باتِّخاذِ شُركاءَ دُونَه

قولُه تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ منصوبٌ على الاختصاص، وفيه أوجهٌ أُخرى ما بين مُستبعَدةٍ أو نافِرةٍ عنِ القَبول[2]، ونُكْتَةُ الاختصاص: زيادةُ بيانِ بني إسرائيلَ بيانًا مقصودًا بِهِ التّعريضُ بِهِم؛ إذ لم يشكُروا النِّعمةَ[3]، أي: أنّكم مِن بني إسرائيلَ النّاجين مِن فرعون، مِن ذُرّيّة المَحمولين في سفينة النّجاة، فهو امتنانٌ مِن بعده امتنان، داعٍ إلى الشّكر والتّوحيد.

سِرُّ التّعبير بلفظ ﴿ذُرِّيَّةَ﴾:

الـتَّـلـويـحُ بالضَّعفِ حالَ الإنجاءِ سابقًا، طريقُ الإقبال حالَ النِّسيان لاحقًا

إذا أُطلِقَتِ الذّرِّيَّةُ فهي شاملةٌ للآباء والأبناء والنِّساء والأولاد، والمقصود بها هنا: أبناءُ مَن حُمِلوا مع نوحٍ ﷺ، والمعنى: يا ذُرّيّةَ أو نَسْلَ وحَفَدَةَ أولئك الّذين نجّاهمُ اللّهُ تعالى مِنَ الغَرَق مع نوحٍ، وهم أجدادُكم الذين هُدوا إلى الحَقِّ والخير ونهجوا نهجَ التّوحيدِ، عليكم التّشبُّهَ بهم؛ إذ إنّكم أولى النّاسِ باتِّباعهم، وفي إيثار لفظ الذُّرّيّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 26.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 309، 308.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 26.

الواقعةِ على الأطفال والنساء تلميحٌ بأنّهم أضعفُ مِن آبائهم؛ لأنّهم متولِّدون عنهم، وتذكيرٌ بالنِّعمة مِن إنجاء آبائِهم؛ ليَلْتَزِموا طريقَ آبائِهم في الإيمان.

بلاغةُ المَجازِ المُرْسَل:

حـفـظُ الآبـاء هـو نـعـمـةٌ على الأبناء

الحَمْلُ في أصل وَضْعِه ما كان في بطن أو على رأس شَجَر أو ظَهْر ونحوِ ذلك، ولمّا كانتِ السّفينةُ هي الحاملةَ لهؤلاء صار الحَمْلُ عليها، المَذكورُ في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ سببًا للنّجاة، فأُطْلِقَ السّببُ وأريدَ المُسَبّبُ عنه على سبيل المَجاز المُرسل، والمعنى: ذُرّيّة مَن أنجيناهم مِنَ الغَرَق أو الطّوفان مع نبيّ اللّه نوحٍ ﷺ، بحَمْلِهم في هذه السّفينة.

بلاغةُ فَنِّ الإدماج في براعة التّعبيرِ:

الـتّـأسّي بـالـصّـالـحـين مـصـدرُ نـجـاةٍ، والمخالفةُ مَهْبِطُ خسارةٍ

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ دون أن يقول: (ذريّة نوح)، وذلك للتّذكيرِ والتّحريضِ والتّعريضِ ببني إسرائيلَ؛ فبنو إسرائيلَ مِن ذُرّيّةِ سامَ بنِ نوح، وكان سامُ مِمّن ركِب السّفينة، فلم يَقُل: (ذُرّيّة نوح) مع أنّهُم كذلك، قصدًا لإدماجِ أربعةِ معانٍ: التّذكيرِ بنِعمةِ إنجاءِ أُصولِهم مِنَ الغَرقِ، والتّذكيرِ بأنّ اللّهَ أنجى نوحًا ومَن معهُ مِنَ الهلاكِ بسببِ شُكْرِهِ وشُكْرِهم؛ تحريضًا على الائتساءِ بهم، والتّعريضِ بأنّهُم إن أشركوا لَيوشِكنّ أن يَنزِلَ بِهِم عذابٌ واستِئصال[1]، والعِلْمِ بأنّهم عَقِبُ أولادِ نوحٍ المؤمنين؛ لتكونَ تلكَ مِنّةً أُخرى[2].

نُكْتَةُ عدمِ نسبةِ بني إسرائيلَ إلى غير نوحٍ ﷺ:

المُـتـابـعـةُ إمّـا بالاقتداء بالبررة الصّالحين، أو بتقليد العاصين الفاسدين

اختار السّياقُ نوحًا ﷺ دون بقيّة الأنبياء؛ كإبراهيم وموسى ﷺ، لما فيهِ أنّ ذُرّيّة نوحٍ كانوا شِقّين؛ شِقٌّ بارٌّ مُطيع، وهُمُ الّذين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 27.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 296.

حَمَلَهُم معهُ في السّفينةِ، وشِقّ مُتكبِّر كافِرٌ وهو وَلَدُهُ الّذي غرِق؛ فكان نوح ﷺ مثلًا لأبي فريقين، وكان بنو إسرائيلَ مِن ذُرّيّةِ الفريقِ البارِّ، فإن اقتدوا بِهِ نَجَوا، وإن حادوا فقد نَزَعوا إلى الفريقِ الآخرِ؛ فيوشِكُ أن يَهلِكوا، وهذا التّماثُلُ هو نُكْتَةُ اختيارِ ذِكرِ نوحٍ مِن بينِ أجدادِهِمُ الآخَرين، مِثلِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ﷺ؛ لِفواتِ هذا المعنى في أولئِك[1].

عِلّةُ فَصْلِ جملةِ الفاصلة:

الـثّـنـاء على الشّكور مدعاةٌ إلى الاقتداء

فُصِلَت جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ عن سابقتها لكمال الاتِّصال؛ لكونها مؤكِّدةً للأولى، متّصلةً بها اتِّصالًا تامًّا، وجاءت هذه الجملة تذييلًا جامعًا، مقصودًا بها الثّناءُ والمَدحُ على نبيّ اللّهِ نوحٍ ﷺ.

غَرَضُ تأكيدِ أنَّ نوحًا ﷺ عبدٌ شكور:

تنبيهُ الغافلين على أسباب الرّفعة، وطريقِ العِزّة

أُكِّد الكلامُ بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾؛ لتنزيل المُخاطَبين منزلةَ مَن يَجْهَلُ ذلك؛ "إمّا لتوثيقِ حَمْلِهم على الاقتداءِ بِهِ، إنْ كانتِ الجُملةُ خِطابًا لِبني إسرائيلَ مِن تمامِ الجُملةِ التّفسيريّةِ، وإمّا لتنزيلِهِم منزلةَ مَن جَهِل ذلك حتّى تورّطوا في الفسادِ؛ فاستحقّوا الاستِئصالَ وذهابَ مُلكِهِم، لينتقِلَ منهُ إلى التّعريضِ بالمُشركين مِنَ العربِ بأنّهُم غيرُ مُقتدين بِنوحٍ؛ لأنّ مَثَلَهُم ومَثَلَ بني إسرائيلَ في هذا السّياقِ واحِدٌ في جميعِ أحوالِهِم، فيكونُ التّأكيدُ منظورًا فيهِ إلى المعنى التّعريضيِّ"[2].

دلالةُ ذِكرِ فعلِ ﴿كَانَ﴾:

العبوديّةُ والشُّكر لا ينقطع أثرُهما بموتِ أهلِهما

﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فعل يدُلُّ على وقوعِ الفعلِ فيما مضى مِنَ الزّمان، فإذا كان فعلًا متطاوِلًا لم يَدُلَّ دلالةً قاطعة على أنّه زال وانقطع، فعُبوديّةُ نوحٍ ﷺ وشُكْرُهُ قد انقطعا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 26.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 28، 27.

بموته، وبقي ذِكْرُهما حديثَ القرآنِ والنّاسِ عنه، و﴿كَانَ﴾ دالّةٌ على تقديم الوَصف وقِدَمِه، وما ثبت قِدَمُه استحالَ عدمُه، والكونُ هنا وصفٌ لما كان عليه مِنَ الشُّكر الذي كان مُلازمًا له في كلِّ أحواله، فاتّصفَ بالعبوديّة الخالصة للمُنْعِم عليه مع إدامة شُكره له؛ فلم ينقطع الحديثُ عنه متى ذُكِر اسمُه ﷺ؛ فمَجيئُها هنا صار مُؤَكِّدًا لهاتين الصِّفتين فيه، لا يَنفكّان عنه.

دلالةُ وصفِ نوحٍ ﷺ بالعبوديّة دون الرّسالة أو النُّبوّة:

غاية الإفضال والإنعام في غاية التّذلُّل والخضوع لله تعالى

العُبوديّة: هي إظهار التّذلُّل والخضوع لله تعالى، والعبادة أبلغ مِنَ العبوديّة؛ لأنّها غاية التّذلُّل؛ ولا يستحقُّها ولا تكون إلّا لمَن له غايةُ الإفضال والإنعام، وهو الله ﷻ، ولمّا كان نوحٌ ﷺ عبدًا مخلِصًا لله تعالى؛ وصَفَه اللهُ تعالى بتلك الصِّفة، كما وصف نبيَّه محمّدًا ﷺ قبلَ ذلك في رحلة الإسراء، باعتبار هذه الصّفة برهانَ اختيارِه رسولًا.

توجيهُ تخصيصِ صفة الشّكور بالذِّكر:

مَن أدمن شيئًا عُرِف به، وصار علَمًا عليه

مِن أشهر صفات نوحٍ ﷺ صفةُ الشّكر، فكان "عبدًا مبالِغًا في الشّكر لنِعَم الله وعِرفانِ قَدْرِه وعَظَمتِه، وإنّما يكون العبدُ شكورًا إذا كان موحِّدًا لا يرى حصولَ شيءٍ مِنَ النّعم إلّا مِن فضل الله، فاقْتَفوا أثرَه، واتَّبِعوا منهجَه وسُنَّتَه، واقْتَدوا به"، ومن هنا تظهر مناسبته لما قبلَه، "كأنّه قيل: لا تتّخذوا من دوني وكيلًا، ولا تشركوا بي؛ لأنّ نوحًا ﷺ كان عبدًا شكورًا، وأنتم ذُرّيّة مَن آمن به وحُمِل معه، فاجعلوه أُسْوَتَكم كما جعله آباؤكم أُسْوَتَهم، ويجوز أنْ يكون تعليلًا لاختصاصهم والثّناء عليهم، بأنّهم أولادُ المَحمولين مع نوح، فهم متّصلون به، فاستحقّوا لذلك الاختصاصَ، ويجوز أن يقال ذلك عند ذِكره على سبيل الاستطراد"[1].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 438.

سِرُّ اختيارِ صيغة فعول ﴿شَكُورًا﴾:

نـعـيـمُ أهـل الشّكر في زيادة متّصلة

وردت لفظةُ ﴿شَكُورًا﴾ في قوله تعال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ بصيغة المبالغة على وزن (فعول) فأفادت وصفَه ﷻ بأنّه كثيرُ الشُّكرِ في جميع حالاته، "وفيها إيذانٌ وإعلامٌ بأنّ الذين نجوا معه كان نجاؤهم ببركة شُكره ﷻ، كما أنّ وُرودَ هذه الصّيغة يُعدُّ حَثًّا للذّرّيّة على الاقتداء به ﷻ، وزجرًا لهم عنِ الشِّرك المُؤدّي إلى الكُفران"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذُّرِّيّة والنّسل:

يُلحظ في الذّرّيّة الاستمرارُ، بخلاف النّسل فَمُطلقُ الخروج

تدلُّ الذُّرّيّة على الشّيءِ يُبذرُ ويُزرعُ، وقولُهُم: ذرأنا الأرضَ، أي: بذرناها، وزرعٌ ذَريء، على فعيل، والذّرْءُ الخَلْقُ، فيُلحَظ في الذّرّيّة الاستمرارُ والتّكاثرُ، أمّا النّسل فيَدُلُّ على سَلِّ شيءٍ وانسِلالِهِ، والنّسلُ: الولدُ؛ لِأنّهُ يُنسَلُ مِن والِدتِهِ، وتناسَلوا: وُلِد بعضُهُم مِن بعض[2]، فيُلحظ فيه الخروج، ودلالةُ الذّرّيّة أرسخُ في معنى الاستمرار والتّكاثر، فكانت أوقعَ في سياق الامتنان.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 156.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرأ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»